لَـوْلَا ٱلـلِّـئَـامُ وَشَـيْءٌ مِـنْ مُـشَـابَـهَـةٍ
لَـكَـانَ ٱلْأَمَ طِـفْـلٍ لُـفَّ فـي خِـرَقِ[١]
كَـلَامُ أَكْـثَـرِ مَـنْ تَـلْـقَـى وَمَـنْـظَـرُهُ
مِـمَّـا يَـشُـقُّ عَـلَـى الآذَانِ وَٱلْـحَـدَقِ[٢]

الغنى قبيح في يد اللئيم

يمدح أبا العشائر الحسن بن علي بن الحسين بن حمدان العدوي: [الخفيف]

أَتُـرَاهَـا لِـكَـثْـرَةِ الْـعُـشَّـاقِ
تَـحْـسَـبُ الـدَّمْـعَ خِـلْـقَـةً فـي الـمَـآقـي[٣]
كَـيْـفَ تَـرثِـي الـتـي تَـرَى كـلَّ جَـفْـنٍ
رَاءَهَـا غَـيْـرَ جَـفْـنِـهَـا غَـيْـرَ رَاقِـي[٤]
أَنْـتِ مِـنَّـا فَـتَـنْـتِ نَـفْـسَـكِ لَـكِـنَّـ
ـكِ عُـوفِـيـتِ مِـنْ ضَـنًـى وَاشْـتِـيَـاقِ[٥]

(١) الولد سرّ أبيه، فآباء إسحاق تشرّبوا اللؤم طبعاً، فتأصل في سلوكهم، والآباء قدوة الأبناء ينشئونهم كما تربّوْا؛ فالكل شركاء في لؤم الطباع، ولولا آباؤه لكان ألام طفل لُفَّ في خرق، حتى الخرق تدلّ على الخساسة بذاتها.

(٢) يشقّ: يصعب. الأحداق: العيون. إن ما يُوحيه من منظر يُوحي بالودّ، ولكن الحقيقة أن منطق إسحاق يُؤذي الآذان لما فيه من غثاثة في القول المغلف بالخبث، وما يُثير الاشمئزاز قماءة منظره وبشاعته.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٨. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية بمطلع غزلي. أترى: أتظنّ. المآقي، الواحد مؤق: مؤخر العين ممَّا يلي الأنف، يسأل الشاعر صاحبه مستعلماً عن علم محبوبته إذا كانت تعتقد أن بكاء عشاقها لشدّة حبهم لها أن دموع هؤلاء في مآقيهم خِلقة جُبلوا عليها.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٤. راءها: مقلوب رآها. راقي؛ ورقأ الدمع: انقطع. يسأل الشاعر عن غادة حسناء ترى كلّ العيون دامعة فلا ترثي لحال أصحابها الذين تركتهم يتعذّبون لإهمالها لهم وهجرهم بينما كانت عيناها لا تدمعان، فكيف يمكنها أن تتألم لما يُعانون من الحرمان.

(٥) الضنى: الضعف والهزال. يُخاطب الشاعر محبوبته ويعتبرها نرجسيّة قد هامت بحبّ =

حُـلْـتِ دُونَ الـمَـزَارِ فَـالْـيَـوْمَ لَـوْ زُرْ
تِ لَـحَـالَ الـنُّـحُـولُ دُونَ الْـعِـنَـاقِ(١)
إنَّ لَـحْـظـاً أدَمْـتِـهِ وَأَدَمْـنَـا
كَـانَ عَـمْـداً لَـنَـا وَحَـتْـفَ اتِّـفَـاقِ(٢)
لَـوْ عَـدَا عَـنْـكِ غَـيْـرَ هَـجْـرِكِ بُـعْـدٌ
لَأَزَارَ الـرَّسِـيـمُ مُـخَّ الـمَـنَـاقِـي(٣)
وَلَـسِـرْنَـا وَلَـوْ وَصَـلْـنَـا عَـلَـيْـهَـا
مِـثْـلَ أنْـفَـاسِـنَـا عَـلَـى الأرْمَـاقِ(٤)
مَـا بِـنَـا مِـنْ هَـوَى الْـعُـيُـونِ الـلَّـوَاتِـي
لَـوْنُ أَشْـفَـارِهِـنَّ لَـوْنُ ٱلْـحِـدَاقِ(٥)
قَـصَّـرَتْ مُـدَّةَ الـلَّـيَـالِـي الـمَـوَاضِـي
فـأَطَـالَـتْ بِـهَـا ٱلـلَّـيَـالِـي الْـبَـوَاقِـي(٦)

= نفسها لإعجابها بما لديها من جمال خارق، فإذا بها تستهين بعشاقها، هم يتألمون وهي بمنأى عن الآلام في حالة مرضية وراحة بال.

(١) حلت: منعت. المزار: الزيارة. النحول: شدّة الضعف، يُخاطب الشاعر حبيبته. أنه كان من أسباب ما حلّ به من نحول أنها حالت دون زيارتها له، فلو زارته لما استطاعت عناقه لشدّة هزاله بسبب هجرها له.

(٢) تبادل الشاعر نظراته مع حبيبته، فإذا بها لا تبدي اهتماماً نحوه، بينما كانت نظرته إليها مؤذنة بهلاكه، لقد عشق فيها جمالها، والأمر كان صدفة لم يقصد رؤيتها.

(٣) و (٤) عدا: منع. أرار: أذاب. الرسيم: ضرب من سير الإبل. المناقي، الواحدة منقية: النياق السمان. يُخاطب الشاعر حبيبته معتذراً عن متابعة رحلة الحبّ معها إلى نهايتها؛ فالبعد بإمكان المرء ملاحقته، أما الهجر فلا يُمكن ملاحقته، ولكان أذاب مخ ناقته المكتنزة وتابع المسير بها، مهما كانت النتيجة، ومهما لحق به من هزال لشدّة شوقه إليها، وما بقي منه سوى بقية أنفاس تدلّ على بقيّة حياة، حتى ناقته التي أجهدها طول السير المتواصل فلم يبق منها إلّا الدماء فكأنها أرماق.

(٥) و (٦) الأشفار، الواحد شفر: منبت الهدب. الحداق، الواحدة حدقة: سواد المقلة. يستغرب الشاعر من أن تلك العيون الكحلاء ذوات الجفون الذابلة السوداء الأحداق =

كَـاثَـرَتْ نَـائِـلَ الأَمِـيـرِ مِـنَ الـمَـا
لِ بِـمَـا نَـوَّلَـتْ مِـنَ الإِيـرَاقِ(١)
لَـيْـسَ إِلَّا أَبَـا الْـعَـشَـائِـرِ خَـلْـقٌ
سَـادَ هٰـذَا الأَنَـامَ بِـاسْـتِـحْـقَـاقِ(٢)
طَـاعِـنُ الـطَّـعْـنَـةِ الـتـي تَـطْـعَـنُ الْـفَـيْـ
ـلَـقَ بِـالـذُّعْـرِ وَالـدَّمِ الـمُـهَـرَاقِ(٣)
ذَاتُ فَـرْغٍ كَـأَنَّـهَـا فِـي حَـشَـا الـمُـخْـ
ـبِـرِ عَـنْـهَـا مِـنْ شِـدَّةِ الإِطْـرَاقِ(٤)
ضَـارِبُ ٱلْـهَـامِ فِـي ٱلْـغُـبَـارِ وَمَـا يَـرْ
هَـبُ أَنْ يَـشْـرَبَ الَّـذِي هُـوَ سَـاقِـي(٥)
فَـوْقَ شَـقَّـاءَ لِـلأَشَـقِّ مَـجَـالٌ
بَـيْـنَ أَرْسَـاغِـهَـا وَبَـيْـنَ الـصِّـفَـاقِ(٦)

= تسحر وتُصيب شغاف القلوب بسهام قاتلة، إنها تجعل ليالي المحبين سريعة في حال الوصل والتلاقي وتطيلها في حال الهجر والخصام، فتؤلم القلوب وتُدمع العيون.

(١) يتخلّص الشاعر من موضوع الغزل إلى مدح الأمير. لقد زادت حبيبة الشاعر في إخلافها المواعيد فلم تبذل وصلها وبالغت في حرمانه، أكثر من مال الأمير وعطاياه للشاعر.

(٢) الأنام: البشر. يُفضل الشاعر أبا العشائر فقد ساد الناس بجدارة وملك قلوبهم دون غيره من الأمراء.

(٣) و (٤) الفيلق: الجيش. الذعر: الخوف. المهراق: المصبوب. يمدح الشاعر ممدوحه بالقوّة؛ فإذا صوّب رمحه إلى صدر عدوّ له يخترق صدره بعنف، فإذا نزعه من صدره نفر الدم بعنف كنبع تفيض به روحه، ممّا يُثير رعب الجيش بأكمله فكأن الدماء تخرج من فرغ دلو، وإذا حُدّث عن تلك الطعنة امرؤ ما ظلّ مطرقاً، وقد أخذته رعدة الخوف حتى كأن الدماء تخرج من جوفه.

(٥) الهام، الواحدة هامة: الرؤوس. يرهب: يخاف. يصف الشاعر قوّة ممدوحه، إنه يصول ويجول في ميدان المعركة، والغبار يتعالى في سمائها، فيُطيح بسيفه بالرؤُوس غير هيَّاب ولا يرهب الموت لأنه يسعى إلى تبوُّء ذُرى المجد.

(٦) الشقَّاء: الفرس الطويلة القوائم الرحبة الفروج. الأشقّ: الحصان الطويل. الأرساغ، =

مَـــا رَآهَـــا مُـــكَـــذِّبُ الـــرُّسْـــلِ إلَّا
صَـدَّقَ الْـقَـوْلَ فـي صِـفَـاتِ الْـبُـرَاقِ[١]
هَـــمُّـــهُ فـــي ذَوي الأسِـــنَّـــةِ لَا فِـيـــهِـــ
ـهَـا وَأَطْـرَافُـهَـا لَـهُ كَـالـنِّـطَـاقِ[٢]
ثَـاقِـبُ الـرَّأْيِ ثَـابِـتُ ٱلْـجِـلْـمِ لا يَـقْـ
ـدِرُ أَمْـــرٌ لَـــهُ عَـــلَـــى إقْـــلَاقِ[٣]
يَـا بَـنِـي ٱلْـحَـارِثِ بْـنِ لُـقْـمَـانَ لا تَـعْـ
ـدَمْـكُـمُ فـي الْـوَغَـى مُـتُـونُ الْـعِـتَـاقِ[٤]
بَـعَـثُـوا الـرُّعْـبَ فـي قـلُـوبِ الأعَـادِ
يِّ فَـكَـانَ الْـقِـتَـالُ قَـبْـلَ الـتَّـلَاقِـي[٥]

= الواحد رسغ، الصفاق: جلد البطن. يصف الشاعر الأمير، وقد امتطى فرسه الشقّاء الطويلة القوائم الرحبة الفروج يصول ويجول عليها وسيفه يحصد الرؤوس، ولو أن حصاناً طويلاً جال بين قوائمها وبطنها لأمكنه ذلك بحرّية.

(١) البراق: دابّة ركبها رسول اللّه ﷺ ليلة المعراج، يضرب بها المثل لسرعتها الفائقة. ولتصوّر عظم سرعة تلك الفرس عمد الشاعر إلى مقاربتها إلى البراق تلك الدابّة العظيمة التي تشرّفت بركوب سيد العالمين عليه الصلاة والسلام متنها، إنها أسرع دابة ممَّا خلق اللّه تعالى، فإذا رأى مكذب الرسل تلك الفرس آمن بأن رحلة النبي ﷺ على متن البراق حقيقيّة، وتلك من معجزات النبي ﷺ.

(٢) الأسنّة: الرماح. النطاق: ما تحيط به المرأة وسطها. وإذا توسط الأمير ميدان المعركة وأحاطت به الأبطال والفرسان من كلّ جانب فهمّه الوحيد أن يخطف أرواحهم لا أن يتلافى رماحهم لثقته بشجاعته وقوّته.

(٣) ثاقب الرأي: صائبه. الإقلاق: الإرباك. يمدح الشاعر الأمير بصواب رأيه ونفاذه، إنه يُسرع إلى مبادرة شؤونه إذا طرأ طارئ لا يتردّد في مواجهته بحزم فلا يرتبك ولا يقلق، وهو فضلاً عن ذلك يمتاز بالحلم وعدم التسرع مع الضعفاء فيُنكّل بهم بل يغفر لهم أخطاءهم.

(٤) و (٥) ورد البيتان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٧. الحارث بن لقمان: جدّ أبي العشائر. يدعو الشاعر مخاطباً آل الحارث بن لقمان أن تدوم لهم ساحات النضال، وهم يمتطون متون خيولهم وينتصرون على أعدائهم الذين تملّك الرعب =

وَتَكَادُ الظُّبَى لِمَا عَوَّدُوهَا
تَنْتَضِي نَفْسَهَا إِلَى الْأَعْنَاقِ[١]
وَإِذَا أَشْفَقَ الْفَوَارِسُ مِنْ وَقْـ
ـعِ الْقَنَا أَشْفَقُوا مِنَ الْإِشْفَاقِ[٢]
كُلُّ ذِمْرٍ يَزْدَادُ فِي الْمَوْتِ حُسْناً
كَبُدُورٍ تَمَامُهَا فِي الْمُحَاقِ[٣]
جَاعِلٍ دِرْعَهُ مَنِيَّتَهُ إِنْ
لَمْ يَكُنْ دُونَهَا مِنَ الْعَارِ وَاقِ[٤]
كَرَمٌ خَشَّنَ الْجَوَانِبَ مِنْهُمْ
فَهْوَ كَالْمَاءِ فِي الشِّفَارِ الرِّقَاقِ[٥]

= قلوبهم فاستولى عليها فإذا بهم ينهزمون نفسياً قبل لقاء آل الحارث بن لقمان.

(١) وردت الأبيات الستة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٣٧. الظبى، الواحدة ظُبة: حدّ السيف. تُنتضى: تُسلُّ. وقوّة هؤلاء القوم أنهم قد عوّدوا سيوفهم أن تخرج بنفسها من أغمادها لتُغمد في أعناق أعدائهم، قبل أن يعمدوا هم أنفسهم إلى استعمالها، فكأنها تُقاتل عنهم.

(٢) أشفق: خاف، يمدح الشاعر في هؤلاء جلدهم وصبرهم في حروبهم، فإذا خاف الفرسان في مواطن الجلاد، وبدأوا يفرّون وجدت هؤلاء يثبتون في مواقعهم كالجبال الرواسي ويُقاتلون حتى تلوح بوادر النّصر، لذا فهم يخافون أن يُتهموا بالجبن إذا خرجوا من المعركة قبل انتصارهم.

(٣) و (٤) يروى «يزيد» بدلاً من «يزداد». الذمر من الرجال: الشجاع. المحاق: آخر ليالي القمر. يعمد الشاعر إلى ذكر قضية عظيمة الأهمية؛ فموت الناس العاديين أنهم يموتون على فراشهم، ينتهي أمرهم بانتهاء حياتهم، أما العظماء والأبطال؛ فهم كالقمر الذي تمّ ضوؤه وأدّى دوره في حياة البشر وترك أثراً محموداً في حياتهم؛ وهذا شأن الشهداء الأبطال الذين قضوا في ساحات النضال في سبيل أنبل قضايا الأمم، فهم شعاع لا يختفي شعاعه ويدوم ما دامت الحياة، وهؤلاء القوم من هذه الفئة لأنهم يطلبون المجد دائماً، ولهذا فدرع الواحد منهم بمثابة قبره، وليس في ذلك عار بل إنه شرف ومجد.

(٥) الشفار، الواحدة شفرة: حدّ السيف. الرقاق: السيوف الرقيقة الشفار. يمدح الشاعر =

وَمَـــعَـــالٍ إِذَا ٱدَّعَـــاهَـــا سِـــوَاهُـــمْ
لَـــزِمَـــتْـــهُ جِـــنَـــايَـــةُ الـــسُّـــرَّاقِ[١]
يَـا ابْـنَ مَـنْ كُـلَّـمَـا بَـدَوْتَ بَـدَا لِـي
غَـائِـبَ الـشَّـخْـصِ حَـاضِـرَ الْأَخْـلَاقِ[٢]
لَـوْ تَـنَـكَّـرْتَ فِـي الـمَـكَـرِّ لِـقَـوْمٍ
حَـلَـفُـوا أَنَّـكَ ابْـنُـهُ بِـالـطَّـلَاقِ[٣]
كَـيْـفَ يَـقْـوَى بِـكَـفِّـكَ الـزِّنْـدُ وَالآ
فَـاقُ فِـيـهَـا كَـالْـكَـفِّ فِـي الآفَـاقِ[٤]
قَـلَّ نَـفْـعُ الْـحَـدِيـدِ فِـيـكَ فَـمَـا يَـلْـ
قَـاكَ إِلَّا مَـنْ سَـيْـفُـهُ مِـنْ نِـفَـاقِ[٥]

= القوم بالكرم، ممّا جعلهم قُساة على أعدائهم لأنهم يرفضون الذلّ والهوان، والكرم سمته لديهم لين كالماء يحيي القلوب ويُنعشها، فإذا سقيته سيوفهم شحذت شفارها واكتسبت قوّة وصلابة، فضلاً عن أن كرمهم يجمع مواطنيهم حولهم فيزيدونهم قوّة ليصدّوا أعداءهم عن غيهم.

(١) الجناية: الجرم. ولقد حصّلوا أمجاداً وعظمة، فلو أن غيرهم ادّعى ما وصلوا إليه لكان من السهل اتهامهم بالسرقة وجرم الادّعاء الكاذب.

(٢) و (٣) يُخاطب الشاعر ممدوحه، إنه فرع من أب ترك سماته وأخلاقه وصفاته متجسّدة بمن خلفه، فكأنه لا يزال حيًّا يتحرّك بولده، ويتنفس به ويقوم بعظائم الأمور التي لطالما استهوته باستمرار، فلو كان الممدوح يجول ويصول في ميادين القتال، وقد تنكّر لتعرّف إليه أعداؤه وأقسموا أنه ابن أبيه لتشابه ما كان يفعله الوالد بهم قبل ابنه.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٥. الآفاق، الواحد أفق: أقطار الدنيا. يسأل الشاعر ممدوحه متعجباً كيف استطاع أن يجمع أقطار الكون بيده رغم صغرها، فإذا بالدنيا تتقلّص حتى تمكن من إمساكها، ومن هنا كانت دهشة المتنبي بأن زنده قدر على حمل كفّه: فالكفّ تنوء عادة بما يُتعبها، ممَّا يُوحي بعظم قدرة الممدوح، وذلك من مغالاة الشاعر.

(٥) يصف الشاعر موقف أعداء ممدوحه، وقد أيقنوا أنهم لن يقدروا على محاربته فلجأوا =

إِلْــفُ هٰــذَا الْــهَــوَاءِ أَوْقَــعَ فــي الْأَنْــ
ـفِ أَنَّ الْــحِــمَــامَ مُــرُّ الــمَــذَاقِ(١)
وَالْأَسَــى قَــبْــلَ فُــرْقَــةِ الــرُّوحِ عَــجْــزٌ
وَالْأَسَــى لَا يَــكُــونُ بَــعْــدَ الْــفِــرَاقِ(٢)
كَــمْ ثَــرَاءٍ فَــرَّجْــتَ بــالــرُّمْــحِ عَــنْــهُ
كَــانَ مِــنْ بُــخْــلِ أَهْــلِــهِ فــي وِثَــاقِ(٣)
وَالْــغِــنَــى فِــي يَــدِ الــلَّــئِــيــمِ قَــبِــيــحٌ
قَــدْرَ قُــبْــحِ الْــكَــريــمِ فِــي الْإِمْــلَاقِ(٤)
لَــيْــسَ قَــوْلِــي فِي شَــمــسِ فِــعْــلِــكَ كَــالــشَّــمْــ
ـسِ وَلٰــكِــنْ كَــالــشَّــمْــسِ فِــي الْإِشْــرَاقِ(٥)

= إلى سلاح فتّاك؛ إنها المصانعة والممالأة: فسيف النفاق في هذه الحالة أكثر فتكاً، ويُثير في النفوس رقّة القلوب.

(١) و (٢) يُناقش الشاعر قضية الوجود الإنساني الذي رضي بالدون من الحياة وآثر السلامة وتخلّى عن كرامته، لأنه اعتقد أن الموت في ميادين النضال طعمه مرّ، فالحزن والخوف موت بطيء، والمرء يقضي حياته على هامش الحياة يشلّ إرادته عجز مفاده حبّ الحياة، فإذا مات ابن آدم فلا ينفع الحزن وقد آذنت حياته بالمغيب؛ إنه لا يستحقّ دمعة حزن.

(٣) الثراء: الغنى الفاحش. فرّجت: كشفت. الوثاق: القيد. ومن حسنات الممدوح أنه حتى في تخلّصه من أعدائه مفيد، فقد يكون العدوّ بخيلاً منع رفده وعطاءه حتى عن أقرب الناس كأولاده وأقربائه فإذا به يُخلّصهم من نجله بقتله، فإذا بأمواله تعود إلى الحياة وينتفع بها وارثوه.

(٤) الإملاق: الفقر والعوز. يُردف الشاعر تعقيباً على ما سبق أن البخل عادة ذميمة للغني، وذلك من لؤم طبعه الذي اعتاد عليه، وما يسيء للكريم أن الإملاق الحادث قد يضطرّه إلى التوقّف عن عادته في الكرم، ففاقد الشيء لا يُعطيه.

(٥) ثَمّة تلازم بين قول الشاعر، إنه دائم الإشراق والإشعاع، وبين أفعال الممدوح التي تُنير الكون لشجاعته وكرمه وعلمه وحسبه الأصيل.

شَاعِرُ الْمَجْدِ خِدْنُهُ شَاعِرُ اللَّفْـ
ـظِ كِلانَا رَبُّ الْمَعَانِي الدِّقَاقِ[١]
لَمْ تَزَلْ تَسْمَعُ الْمَدِيحَ وَلٰكِنَّ
صَهِيلَ الْجِيَادِ غَيْرُ النُّهَاقِ[٢]
لَيْتَ لِي مِثْلَ جَدِّ ذَا الدَّهْرِ فِي الْأَذْ
هُرِ أَوْ رِزْقِهِ مِنَ الْأَرْزَاقِ[٣]
أَنْتَ فِيهِ وَكَانَ كُلُّ زَمَانٍ
يَشْتَهِي بَعْضَ ذَا عَلَى الْخَلَّاقِ[٤]

خالق الخلق خالق الخُلُق

ضرب أبو العشائر مضربه على الطريق وكثرت سُؤَّاله فقال أبو الطيب:

[المنسرح]

لَامَ أُنَاسٌ أَبَا الْعَشَائِرِ فِي
جُودِ يَدَيْهِ بِالْعَيْنِ وَالْوَرِقِ[٥]
وَإِنَّمَا قِيلَ لِمْ خُلِقْتَ كَذَا
وَخَالِقُ الْخَلْقِ خَالِقُ الْخُلُقِ[٦]

---

(١) و (٢) الخدن: الصديق والصاحب. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه شاعر المجد، يُوحي بكلّ مكرمة عنوانها المجد الخالد، ويمدح نفسه بأنه يجسد تلك المعاني بحروف من نور، بشعره الخالد كذلك، ولقد التقى صديقان كلّ منهما يُكمل الآخر. إنه يسمع أشعار الشعراء الذين يمدحونه، وهو يستحقّ المدح لما يتمثّل فيه من الفضائل والمكرمات، ولكن المشكلة أن معظم المادحين لا يصلون إلى مستوى الشاعر الذي يجيد الصهيل بينما يُجيد غيره من الشعراء النهيق شأن سائر الحمير.

(٣) الجَدّ، بفتح الجيم: الحظ. يتمنّى الشاعر لو كان له حظّ كحظّ الممدوح، فالتوفيق يُحالفه دائماً، فالأرزاق تتدفّق عليه من حيث لا يحتسب طوال دهره.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٥. إنها نعم تتدفّق على الأمير، حتى الزمان يتمنّى لو حصل على النزر اليسير من تلك النعم من اللّه عزّ وجلّ.

(٥) و (٦) العين: يقصد بذلك الذهب. الورق: يقصد بذلك الفضة. من طبيعة الخلق أنهم =